٦- فصل

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان[١]

[٣٨] قال أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب الأغانى قال يونس الكاتب : خرجت إلى الشام فى خلافة هشام بن عبد الملك ومعى جارية غانية وكنت علمتها جميع ماتحتاج إليه وأنا أقدر فيها أنها تساوى مائة ألف درهم ، قال : فلما قربنا من الشام نزلت القافلة عن غدير من الماء ونزلت ناحية منه وأصبت من طعام كان معى وأخرجت ركوة كان فيها نبيذ فبينما أنا كذلك ، وإذا بفتى حسن الوجه والهيئة على فرس أشقر ومعه خادمان فسلم علىَّ وقال : أتقبل ضيفا ؟ قلت : نعم فأخذ بركابه ونزل ، وقال : اسقنا من شرابك فسقيته فقال : إن شئت أن تغنى صوتا فغنيته :

حازت من الحسن مالا حازه البشر فلذ لى فى هواها الدمع والسهر

فطرب طربا شديدا واستعاده مرارا ثم قال : قل لجاريتك فلتغن ، فأمرتها فغنت:

جويرة حار قلبى فى محاسنها فلا قضيب ولاشمس ولاقمر

فطرب طربا شديدا واستعاده مرارا ولم يزل مقيما إلى أن صلينا العشاء؛ ثم قال : ماأقدمك علينا هذا البلد ؟ قلت : أردت بيع جاريتى هذه.

---

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان : من ملوك الدولة الأموية بالشام ، أخو يزيد الثانى . فى عهده بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها فتح ناربونا ، وبلغت أبوابه فرنسا حيث وقعت معركة "بلاط الشهداء" ت[١٢٥هـ =٧٤٣م] . انظر : تاريخ الطبرى (٣٨٣/٨) ، تاريخ ابن خلدون (٣/٨٠-١٣٠) .

قال : فكم أملت فيها من الثمن قلت ماأقضى به دينى وأصلح به حالى ، قال : ثلاثون ألفا ، قلت ماأحوجنى إلى فضل الله والمزيد فيه ، قال : أيقنعك أربعون ألفا ، قلت فيها قضاء دينى وأبقى صفر اليد ، قال : قد أخذناها بخمسين ألفا من الدراهم ، ولك بعد ذلك كسوة ونفقة طريقك وأشركك فى حالى أبدا مابقيت ، فقلت : قد بعتكها . قال : أفتشق بى أن أوصل ذلك غدا وأحملها معى ، أو تكون عندك إلى أن أحمل ذلك اليك غدا، فحملنى السكر والحياء مع الخشية منه على أن قلت : نعم قد وثقت بك فخذها بارك الله لك فيها ، فقال : لأحد غلاميه احملها على دابتك وارتدف وراءها وامض بها ؛ ثم ركب فرسه وودعنى وانصرف ، فما هو إلا أن غاب عنى ساعة، فعرفت موضع خطئى وغلطى ، وقلت : ماذا صنعت بنفسى أسلم جاريتى إلى رجل لاأعرفه ولاأدرى من هو ، وهب أنى عرفته فمن أين الصلة إليه ، فجلست متفكرا إلى أن صليت الصبح ودخل أصحابى دمشق وجلست حائرا لاأدرى ماأصنع وقرعتنى الشمس وكرهت المقام فهممت بالدخول إلى دمشق ثم قلت لم آمن أن الرسول يأتى فلا يجدنى ، فأكون قد جنيت على نفسى جناية ثانية فجلست فى ظل جدار هناك فلما أضحى النهار وإذا أحد الغلامين اللذين كانا معه قد أقبل على فما أذكر أنى سررت بشئ لأعظم من سرورى ذلك الوقت بالنظر إليه ، فقال لى : ياسيدى أبطأنا عليك فلم أذكر له شيئا مما كان بى ؛ ثم قال لى : أتعرف الرجل ؟ قلت : لا ، قال : هو الوليد بن يزيد[1] ولى العهد فسكت

---

(١) الوليد بن يزيدبن عبد الملك بن مروان ، أبو العباس : ولى الخلافة بعد وفاة عمه هشام، فمكث فى الخلافة سنة وثلاثة أشهر . ونقم عليه الناس حبه للهو ، حتى قتل فى قصر النعمان بن بشير ت[١٢٦هـ-٧٤٤م]. انظر : تاريخ ابن خلدون (١٠٦/٣).

عند ذلك ؛ ثم قال : قم فاركب وإذا معه دابة فركبتها وسرنا إلى أن وصلنا إلى داره فدخلت إليه وإذا بالجارية قد وثبت وسلمت على فقلت : ماكان من أمرك ؟ قالت : أنزلنى هذه الحجرة وأمر لى بما أحتاج إليه فجلست عندها ساعة ، وإذا أنا قد أتانى خادم له ، فقال لى : قم فقمت فأدخلنى على سيده فإذا هو صاحبى بالأمس وهو جالس على سريره ، فقال : من تكون فقلت: يونس الكاتب ، قال : مرحبا بك قد كنت والله إليك بضنين وكنت أسمع بخبرك فكيف كان مبيتك فى ليليتك قلت : بخير أعزك الله ، قال : فلعلك ندمت على ماكان منك البارحة وقلت دفعت جاريتى إلى رجل لاأعرفه ولا أعرف اسمه ولامن أى البلاد هو ، فقلت : معاذ الله أيها الأمير أن أندم ولو أهديتها إلى الأمير كانت أقل وأخس وماقدر هذه الجارية ، فقال : والله لكنى ندمت على أخذها منك ، وقلت: رجل غريب لايعرفنى وقد دهمته وسفهت عليه فى استعجالى لأخذ الجارية أفتذكر ماكان بيننا ، قلت : نعم قال : بعتنى هذه الجارية بخمسين ألف درهم قلت : نعم ، قال : هات ياغلام المال فوضعوه بين يديه ، فقال : هات ياغلام ألف دينار فأتى بها ثم قال : ياغلام هات خمسمائة دينار أخرى فجاء بها ثم قال : هذا ثمن جاريتك فضمه إليك وهذه ألف دينار لحسن ظنك بنا وهذه الخمسمائة دينار لنفقة طريقك وماتبتاعه لأهلك رضيت ، قلت : رضيت وقبلت يديه وقلت: والله قد ملأت عينى ويدى ثم قال : والله إنى لم أدخل بها ولاشبعت من غنائها على بها فجاءت فأمرها بالجلوس فجلست فقال لها : غنى فأنشدت تقول :

أيا من حاز كل الحسن طرا ... ويا حلو الشمائل والدلال

جميع الحسن فى عجم وعرب ... ومافى الكل مثلك ياغزالى

فعطفا ياملیح على محب ... بوعدك أو بطيف من خيال

حلالى فيك ذلى وافتضاحى وطاب لمقلتى سهر الليالى
وماأنا فيك أول مستهام فكم قبلى قتلت من الرجال
رضيتك لى من الدنيا نصيبا وأنت أعز من روحى ومالى

فطرب طربا شديدا وشكر حسن تأديبى لها وتعليمى إياها ثم قال : ياغلام قدم له دابة بسرجها وآلتها لركوبه وبغلا لحمل حوائجه وثقله ؛ ثم قال : يايونس إذا بلغك أن هذا الأمر قد أفضى إلى فالحق بى فوالله لأملأن لك يدك ولأعلين قدرك ولأغنينك مابقيت قال : فأخذت المال وانصرفت فلما أفضت الخلافة إليه سرت إليه ، فوفى والله بوعده وزاد فى إكرامى وكنت معه على أسر حال وأسمى منزلة ، وقد اتسعت أحوالى وكثرت أموالى وصار لى من الضياع والأملاك مايكفينى إلى مماتى ويكفى من بعدى ولم أزل معه حتى قتل عفا الله عنه .

[٣٩] وقيل : إنه لما حج هشام فى أيام أبيه طاف بالبيت وجهد أن يصلى إلى الحجر الأسود ليستلمه فلم يقدر عليه لكثرة الزحام ، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أهل الشام . فبينما هو كذلك إذا أقبل زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضي الله عنهم[1] أجمعين ، وكان من أحسن الناس وجها وأطيبهم أرجا[2]، فطاف بالبيت

---

(١) زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب : رابع الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية ، وأحد من كان يضرب بهم المثل فى الحلم والورع ، يقال له : علىّ الأصغر للتمييز بينه وبين أخيه ، ت[٩٤هـ - ٧١٢م] . انظر : وفيات الأعيان (١/٢٣٠) ، طبقات ابن سعد (٥/١٥٦) ، الحلية (٣/١٣٣) .

(٢) أرِج : فاحت منه رائحة طيبة .

فلما انتهى إلى الحجر الأسود تنحى له الناس حتى استلمه ، فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام : لاأعرفه مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، وكان أبو فراس الفرزدق حاضرا، فقال: أنا والله أعرفه ، فقال الشامى : من هذا ياأبا فراس ؟ فقال[1] :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
ينمى إلى ذروة العز التى قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ماجاء يستلم[2]
فى كفه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع فى عرنينه شمم[3]
يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم[4]
ينشق نور الهدى من نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم[5]
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت عناصره والخيم والشيم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
الله شرفه قدرا وعظمه ... جرى بذاك له فى لوحه القلم
وليس قولك من هذا بضائره ... والعرب تعرف من أنكرت والعجم

---

(١) انظر : ديوان الفرزدق ص ٥١١ .

(٢) الحَطِيم : جدار حجر الكعبة ، سمى بذلك لانحطام الناس عنده ، أى لازدحامهم ..

(٣) خَيْزُران : عود من الخشب اللين . العِرْنَان : عود يجعل فى الأنف

(٤) غَضَّ : نضرٌ . يغضى ، بمعنى : منع النظر إليه من مهابته

(٥) القَتَمَ : ضرب من السواد.

كلتا يديه غياث عم نفعها ... يستو كفان ولايعروهما عدم[1]
سهل الخليقة لاتخشى بوادره ... يزينه اثنان حسن الخلق والشيم[2]
حمال أثقال أقوام إذا اقترحوا ... حلو الشمائل يحلو عنده نعم
ماقال لا قط إلا في تشهده ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم
عم البرية بالإحسان فانقشعت ... عنها الغياهب والإملاق والعدم
من معشر حبهم دين وبغضهمو ... كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل ومن خير أهل الأرض قيل هم
لايستطيع جواد بعد غايتهم ... ولايداينهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت ... والأسد أسد الشرى والباس محتدم[3]
لاينقص العسر بسطا من أكفهم ... سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم ... في كل بدء ومختوم به الكلم
يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم ... خلق كريم وأيد بالندى هضم
أي الخلائق ليست في رقابهم ... لاولية هذا أوله نعم
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم

فلما سمع هشام ذلك غضب وحبس الفرزدق ، فأنفذ له زين العابدين رضي الله عنه اثني عشر ألف درهم فردها وقال : مدحته لله لاللعطاء والصلات فقال زين العابدين : إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئا لانعود فيه ، فقبلها الفرزدق، انتهى[4] .

---

(١) غِيَاث : ما أغثت به المضطر من طعام وغيره.

(٢) بَوادِره : ما يبدو من الإنسان عند حدته .

(٣) الشَرَى، جمعها أشراء: مَأسده جانب الفرات. يضرب بها المثل فيقال:كأسد الشرى.

(٤) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/٢٠) .

[٤٠] **ومما يحكى** : أن هشام بن عبد الملك كان ذات يوم فى صيده وقنصه ، إذ نظر إلى ظبى تتبعه الكلاب فتبعه وأحالته إلى خباء أعرابى يرعى غنما ، فقال هشام: ياصبى دونك هذا الظبى ، فأْتِنى به ، فرفع الصبى رأسه إليه وقال له : ياجاهل بقدر الأخيار لقد نظرت إلىَّ باستصغار وكلمتنى باحتقار فكلامك كلام جبار وفعلك فعل حمار ، فقال هشام : ياصبى ويلك ماتعرفنى ! فقال : قد عرّفنى بك سوء أدبك، إذ بدأتنى بكلامك قبل سلامك ، فقال : ويلك أنا هشام بن عبد الملك ، فقال له الاعرابى : لاقرب دارك ولاحيا مزارك ما أكثر كلامك وأقل إكرامك ؛ فما استتم حتى أحدقت به الجيوش من كل جانب كلٌّ منهم يقول : السلام عليك ياأمير المؤمنين ، فقال هشام : أقصروا الكلام واحفظوا الغلام فقبضوا عليه .

ورجع هشام إلى قصره وجلس فى مجلسه وقال : علىَّ بالغلام البدوى فأتى به ، فلما رأى الغلام كثرة الغلمان ، والحجاب ، والوزراء ، والكتاب، وأبناء الدولة ، وأرباب الصولة ، لم يكترث[1] بهم ، ولم يسأل عنهم ، بل جعل ذقنه على صدره ، وجعل ينظر حيث تقع قدماه إلى أن وصل إلى هشام، فوقف بين يديه ونكس رأسه إلى الأرض وسكت الغلام وامتنع من الكلام ، فقال بعض الخدام : ياكلب العرب مامنعك أن تسلم على أمير المؤمنين؟ فالتفت إليه مغضبا وقال : يابرذعة الحمار منعنى من ذلك : طول الطريق ونهر الدرجة[2] والتعويق . فقال هشام : وقد تزايد به

---

(١)لم يكترث : لم يعبأ .

(٢) نهر الدرجة : الأمور العظيمة .

الغضب ياصبى قد حضرت فى يوم حضر فيه أجلك وخاب فيه أملك وانصرم فيه عمرك ، فقال له الصبى : والله ياهشام لئن كان فى المدة تأخير ماضرنى من كلامك لاقليل ولاكثير، فقال له الحاجب : بلغ من أمرك ومحلك ياأخس العرب أن تخاطب أمير المؤمنين كلمة بكلمة ، فقال له مسرعا : لقيك الخذل ولأمك الويل والهبل أما سمعت ماقال الله تعالى ﴿يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها﴾ [النحل: ١١١] فإذا كان الله يجادل جدالا ، فمن هشام حتى لايخاطب خطابا ؛ فعند ذلك : قام هشام واغتاظ غيظا شديدا وقال : ياسياف على برأس هذا الغلام ؛ فقد أكثر الكلام فيما لايخطر على الأوهام ، فقام السياف وأخذ الغلام وبركه فى نطع الدم وسل سيف النقمة على رأسه، وقال : ياأمير المؤمنين عبدك المذل بنفسه المتقلب فى رمسه[1] أأضرب عنقه وأنا برئ من دمه؟ قال : نعم فاستأذنه ثانية ، فأذن له ، ثم استأذنه ثالثة، فهم أن يأذن له فضحك الصبى حتى بدت نواجذه فازداد هشام منه تعجبا ، وقال : ياصبى أظنك معتوها ترى أنك مفارق الدنيا ومزايل الحياة وأنت تضحك هزأ بنفسك ، فقال: يا أمير المؤمنين لئن كان فى المدة تأخير ولم يكن فى الأجل تقصير ماضرّنى منك لا قليل ولاكثير ، ولكن أبيات حضرت الساعة فاسمعها فقتلى لايفوت فأكثر الصموت ، فقال هشام : هات وأوجز فهذا أول أوقاتك من الآخرة وآخر أوقاتك من الدنيا فأنشد يقول :

نُبئت أن البـاز علق مرة ... عصفور بر ساقه المقدور

فتعلق العصفور فى أظفاره ... والباز منهمك عليه يطير

---

(١) الرَمَسَ : القبر .

فأتى لسان الحال يخبر قائلا ... ها ظفرت وإننى مأسور
مثلى فما يغنى لمثلك جوعة ... ولئن أكلت فإننى محقور
فتبسم البازالمدل بنفسه ... طربا وأطلق ذلك العصفور[1]

قال : فتبسم هشام ، وقال : وقرابتى من رسول الله ﷺ لو تلفظ بهذا من أول وقت من أوقاته وطلب مادون الخلافة لأعطيته ، ياخادم : احش فاه درا وجوهرا وأحسن جائزته ودعه يمض إلى حال سبيله .

[٤١] وقيل : وفد عروة بن أذينة[2] على هشام بن عبد الملك فشكا إليه فقره، فقال ألست القائل :

لقد علمت وما الإسراف من خلقى ... أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى إليه فيعيينى تطلبه ... وإن قعدت أتانى ليس يعيينى

وخرجت الآن من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق ، فقال : ياأمير المؤمنين وعظت فأبلغت ، وخرج وركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعا .

فلما كان الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة ، وقال : رجل من قريش قال حكمة ووفد علىَّ فرددته خائبا . فلما أصبح وجه إليه بألفى دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة فأعطاه المال ، فقال : أبلغ عنى أمير المؤمنين السلام وقل له : كيف رأيت قولى سعيت فأكديت[3] فرجعت خائبا فجلست فى دارى فأتانى رزقى فى منزلى انتهى .

---

(١) المُدِلّ : الواثق بنفسه .

(٢) عروة بن يحيى بن مالك ، ابن أذينة : شاعر غزل ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضا . ت[١٣٠هـ-٧٤٧م] . انظر : الشعر والشعراء ص٢٢٥ .

(٣) أكدى : ألح فى الطلب .